

الوزير الشاعر ابن زمرك وآثاره*

بقلم ريجيس بلاشير
تعريب محمد المعجمي

لا يجوز أن نعتبر تقلب ابن الخطيب المدهش بين مختلف الخطط التي تقلدها أمرا مستقلاً بذاته بالمغرب الإسلامي في القرن الرابع عشر (م) فتقلبات ابن مرزوق وابن خلدون تقيم الدليل على صحة قولنا كما أن شخصية أخرى

* نشر في حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر II 1936 - 291 - 312 .
المراجع العربية : الإحاطة = ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة 1319) وفي مواضع أخرى خاصة II 221 - 240 نقلها المقرئ في نفح الطيب IV 679 - 688 .
لمحة = ابن الخطيب : اللوحة البدرية في الدولة النصرية (القاهرة 1347) .
أح = ابن الأحمر (المتوفى بعد 1404/807 كتاب مجهول العنوان نقله المقرئ في النفح IV 689 - 749 - نفح = المقرئ : نفح الطيب (بولاق 1279) ج III و IV - أزهار = المقرئ .
أزهار الرياض : مخطوطة باريس المكتبة الوطنية عدد 3347 - ابن القاضي جذوة الإقتباس (فاس 1309) - بغية : السيوطي : بغية الوعاة القاهرة 1310 .
باللغات الأوروبية :

- Girault De Prangey : Essai sur l'architecture des Arabes et des Mores Paris 1841.
- Lafuente y Alcantara, Inscripciones arabes de Granada Madrid 1859
- Almagro Cardenas, Estudio Sobre les inscripciones arabes de Granada (Grenada 1879).
- Hartmann : Das arabische strophengedicht : 1, das Muwāssah (Weimar 1897)
- Brockelmann : Geschichte der arabischen litteratur (weimar - Berlin 1898-1902)
- El Encyclopedie de l'Islam, Leyden 1913 et sq
- Golfarichs, la Alhambra Barcelone 1929
- Levi-Provençal Inscriptions arabes d'Espagne, Leyden 1931
- Blachère, un poète arabe au IV/X siècle; Abou t-Tayyib al Motanabbi Paris 1935

عاشت في ذلك العصر أي شخصية الوزير الشاعر ابن زمرك قميّة بأن تثبت أن رجل الدولة في ذلك العهد مدين بنجاحه وتألّق سعده إلى آرائه السياسية من جهة وإلى خصاله في معاشرّة الملوك مع رقة الظرف من جهة أخرى . وقد تساعد أيضا على إلقاء أنوار ، إن لم تكن جديدة فهي على أقل تقدير أسطع ، على تطور الأدب التقليدي (الكلاسيكي) عند « عرب » اسبانيا في القرن الذي سبق سقوط غرناطة .

ففي سنة 733 هـ (1333 م) آل الحكم الى سابع ملوك بني نصر ، أبي الحجاج يوسف وسيكون عهده رغم الهزيمة النكراء التي ألحقها به ملك قشتالة الفونس الحادي عشر عهدا مشرقا عرفته مملكة غرناطة في ميداني الأدب والفن (1) .

وفي نفس السنة 733/1333 14 شوال/29 جوان (2) ولد بغرناطة في ربض البيّازين أبو عبد الله (3) محمد بن يوسف الصّريحي المشهور فيما بعد بابن زمرك (4) وكانت أسرته الوافدة من شرقي الأندلس متواضعة إذ كان أبوه حدّادا ففكر في تنشئته على نفس المهنة التي كان يمارسها الآ أن الطفل كان ضعيف البنية تلوح عليه علامات الفطنة لذلك عزم والده على أن يجعل منه أديبا .

(1) شيد يوسف مدرسة غرناطة وباب القضاء (171 - 172) (Levi - Provençal) وقاعة السفراء (91 - 89 - 76 - 73 - 67 - 59 - 57 - 56 - 48 - Lafuente)

(2) الإحاطة II 240 .

(3) ليس أبا عبيد الله حسب رواية Brockelmann II 259 . أما التفاصيل الموالية فلترجع في الإحاطة II 221 وابن الأحمر IV 691 .

(4) نجهل أصل هذا الإسم وشكله الصحيح (بعضهم ينطق زمرك) وقد يكون اسم جدّ بعيد .

فقد تلقى بادیء الأمر بغرناطة دراسة قرآنية تقليدية ثم جلس إلى علمائها (5) ففي النحو تتلمذ لابن الفخّار (6) ثم فيما بعد للشریف أبي القاسم الحسني (7) أما اللغة فقد أخذها عن ابن لبّ (8) والفقہ عن أبي علي منصور الزواوي ، والحديث عن أبي بيش (9) وابن الحاج البالفقي (10) وكانت مشايخه في الأدب الوزير ابن الخطيب والشاعر ابن اللوشي (11) وابن بيش الذين تقدّم ذكرهم .

ويقال إنّ فضل ابن زمرك وخصاله لم تعزب عن أساتذته ، مما حدا ببعضهم الى السعي في انتشاله من خمول الذكر وخاصة ابن الخطيب الذي اهتمّ عند ارتقائه الى أسمى مراتب الوزارة في عهد يوسف الأول سنة 1349/749 بمآل تلميذه . فانتدبه كاتباً في الديوان (12) وتمادت الصّلة بين الأستاذ وتلميذه طيلة سنوات على أحسن حال (13) وقد عبر هذا في كل

(5) قائمة شيوخ ابن زمرك أوردها ابن القاضي 198 والإحاطة II 222 وابن الأحمر IV 691 سطور 10 - 26 - وكما هو المألوف وردت أسماء الشيوخ الذين التقى بهم ابن زمرك طيلة حياته دون بيان للتواريخ .

(6) أبو عبد الله محمد بن علي يقال له ابن الفخار ، نحويّ ولد بالبيرة ودرّس بغرناطة حيث توفي سنة 1353/754 . النفح III 85 آر 197 - 200 البغية 74 .

(7) أبو القاسم محمد بن أحمد ولد بسبّنة 1297/697 قاضي غرناطة اعتزل بوادي آش سنة 1347/747 بعد خلعه ثم وليّ من جديد القضاء وتوفي بغرناطة 1359/760 الإحاطة II 129 - النفح III 104 .

(8) أبو سعيد فرج بن أحمد بن لبّ ، فقيه لغوي - مفسّر ولد بغرناطة 1301/701 قام بالتدريس في غرناطة وتوفي بها سنة 1382/782 - النفح III 269 - 272 . البغية 372 .

(9) أبو عبد الله محمد بن بيش العبدري ولد بغرناطة 1281/680 أقام بسبّنة وتوفي بمسقط رأسه سنة 1353/753 . اشتهر بشعره النفح III 200 . 455IV .

(10) أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج عالم بالحديث والسنة شاعر ولد بالمرية وأقام بمالقة وبجاية وفاس وتوفيّ وهو قاض بالمرية سنة 1369/771 . الإحاطة II 101 والنفح III 248 .

(11) أبو عبد الله محمد بن محمد اللوشي شاعر وكاتب ديوان ولد بلرقة سنة 1278/678 وتوفي بغرناطة سنة 1352/752 الإحاطة II 197 .

(12) النفح III 363 سطر 10 .

(13) انظر مدح الخطيب ابن زمرك ، الإحاطة II 221 .

مناسبة عن اعترافه بالجميل في رسائل مسجوعة أو منظومة (14) وفي مدائح كلاسيكية جديدة بقيت منها الى الآن بعض المقطوعات (15) أما السنوات التي تلت دخول ابن زمرك الديوان فلم يسجل أثناءها أي حدث جدير بالاعتناء إلا أنه تحسن الإشارة الى الوشائج التي حاكها الكاتب الشاب سنة 1352/753 مع ابن مرزوق (16) الذي ذاع صيته ، والذي ارتحل عن تلمسان لينزل غرناطة حيث أسندت اليه امامة مسجد الحمراء وتولى بالإضافة الى ذلك تعليم التصوف وكان ابن زمرك من تلاميذه (17) فنظم نزولا عند رغبة أستاذه قصيدة يمدح فيها كتاب الشفاء (18) .

كما أن بعض المقطوعات الشعرية (19) التي نظمها ابن زمرك في ذلك العهد تشهد بالمسحة الصوفية التي اتسم بها تفكيره (20) آنذاك والتي كان

(14) اثنان وردتا في الإحاطة II 237 - 239 مؤرخة في 15 جمادى الأولى 769 (ليس 669 كما ورد في تاريخ النشر = الموافق 8 جانفي 1368) و II و 23 الخ (دون تاريخ وربما كانت سابقة للأولى) .

(15) قطعة 1 النفع III 361 الإحاطة II 223 ، 34 بيتا رائية - البحر الطويل .
 قطعة 2 النفع III 363 10 أبيات بائية البحر البسيط .
 قطعة 3 النفع III 363 5 أبيات البحر الطويل .
 قطعة 4 النفع III 363 6 أبيات - حائية البحر الكامل .
 قطعة 5 النفع III 364 25 بيتا - رائية البحر الطويل .

(16) أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني ولد بتلمسان سنة 1310/710 ارتحل الى المشرق وعاد الى المغرب سنة 1333/733 اتصل بالسلطان المريني أبي الحسن وكان من خاصته وزالت حظوته بتولي خلفه فلزم بغرناطة العزلة سنة 1352/753 وتوفي بالقاهرة سنة 1379/781 عن Levi - Provençal نص جديد في تاريخ دولة بني مرين ، مسند ابن مرزوق (Hesperis) ج 5 (1925) مقدمة - فصلا 4 - 8 .

(17) ابن الأحمر IV 691 سطور 13 - 16 .

(18) كتاب في مدح محمد والإشادة بذكره ألفه عياض قاضي سبته المتوفي 1149/544 راج قطعة 6 الإحاطة II 236 - 237 - 20 بيتا - القافية عينية - البحر الطويل .

(19) قطعة 7 الإحاطة 236/2 - 237 ، سطر 6 : ثلاثة أبيات . القافية بائية . والبحر متقارب . وقد نتساءل هل القصيدة الواردة في النفع ، 756/4 وهي في مدح النبي محمد نظمت في ذلك التاريخ راجع قطعة 7 مكرر وهو موشح البحر السريع 5 أبيات .

(20) راجع الإحاطة II 222 سطر 6 .

يذكىها بل يقدحها بلا ريب ما انعقد من أواصر بين الشاب وشيخه أبي القاسم الحسيني من جهة وبينه وبين المقرئ (22) التقي الورع سنة 1356/757 من جهة أخرى . فلا يذهب بنا الظن إلى الاعتقاد أن ما يبيده ابن زمرك من إجلال الحياة التأمل سيغير مجرى حياته بل شأنه في ذلك شأن معلميه إذ لم يجد الكاتب كبير عناء في التوفيق بين نزعتيه الزهدية ومطامحه الدنيوية وهكذا بفضل ابن مرزوق يضحي ابن زمرك من خاصة الأمير المريني أبي سالم ابراهيم الذي اتخذ من غرناطة (23) ملتجأ ، وما هي إلا بداية إذ لم يأخذ نجم ابن زمرك في الصعود حقاً إلا عند تولي الأمير محمد الخامس الغني بالله (24) من بني نصر سنة 1354/755 وتبوء أستاذه وحاميه ابن الخطيب الوزارة الكبرى فجعل ابن زمرك يحظى بخطة سلطانية في بطانة ملك غرناطة ولم يتوان طيلة ثلاثين سنة في خدمة سيده مخلصاً وفيًا يشاركه نعماء وبأساءه .

أولاً : لما أطيح بمحمد الخامس على يد أخيه في رمضان 760/أوت 1359 والتجأ إلى بلاط أبي سالم (25) المريني بفاس صحبه ابن زمرك في منفاه

(21) عند وفاته سنة 1359/760 نظم ابن زمرك مرثية يشيد فيها بورعه ونسكه - قطعة 8 ابن الأحمر III 107 - 108 - 57 بيتا قافية - البحر البسيط .

(22) أبو عبد الله محمد بن محمد المقرئ جد أبي صاحب كتاب نفح الطيب ولد بتلمسان - تولى القضاء بفاس بعد رحلة قام بها إلى المشرق - أرسله السلطان المريني أبو عنان سنة 1356/757 في سفارة إلى غرناطة ثم استقر تبعاً بمالقة فغرناطة وتوفي بفاس سنة 759 الإحاطة II 136 - 137 النفح III 112 - 178 .

(23) الإحاطة II 222 سطر 8 النفح IV 680 سطر 5 .

(24) حكم من سنة 1354/755 إلى 1359/760 ومن سنة 1362/763 إلى 1391/793 بعد عزلة ثلاث سنوات .

دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية III B 940 - اللوحة 114 تنص على أن ابن زمرك كان في خدمة الملك قبل عزله .

(25) هو الذي سبق لابن زمرك أن التقى به منذ سنوات بغرناطة - راجع ما تقدم - كان ملكاً على فاس من 1359/760 إلى 1361/762 - دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية III b 529 b 940 .

حيث وجد من بين قدامى الأصدقاء السلطان أبا سليم وشيخه الصوفي ابن مرزوق (26) فأكرم السلطان وفادته وعبر له ابن زمرك عن جميل عرفانه بمدائح نخصّ منها قطعة أوحاها قدوم سفارة (27) من السودان على السلطان أبي سليم . ومرت سستان في الانتظار والحين (28) انقضت اثرهما الغربية فاسترجع محمد الخامس ملكه ودخل عاصمته مظفراً في 20 جمادى الثانية 17/753 أبريل 1362 فأعاد الوزارة الكبرى إلى ابن الخطيب واتخذ ابن زمرك كاتب سرّه (29) ومن ذلك الحين لقب بالرئيس والفقهاء (30) وفي السنوات الموالية بذل ابن زمرك جهداً يتجاوز إطار وظيفته الرسمية فنراه يقوم بتدريس الفقه وكان أستاذاً ذائع الصيت بمالقة وغرناطة (31) وتخرج على يديه الشاطبي (32) الذي ملأت شهرته الآفاق وزيادة على ذلك لم يفتأ ينظم الشعر ، والغالب على الظن أن ذلك النشاط في جملته قد أدى إلى تدعيم تأثيره وتعزيزه في مجلس محمد الخامس أما علاقته بالوزير ابن الخطيب فقد كانت

(26) ابن الأحمر IV 691 - الجذوة 198 .

(27) قطعة 9 الإحاطة II 227 في أسفل - 230 - نفح الطيب IV 683 - 684 - 47 بيتا رائية - البحر الكامل .

(28) قطعة 9 البيتان 4 - 5 .

(29) عن ابن الأحمر IV 692 سطر 15 لم تسند إليه الحطة إلا سنة 1371/773 إلا أن هذه الرواية ينقضها ما ورد في اللمحة (تم تأليفها سنة 1363/765) وفي الإحاطة II 20 و 22 سطر 13 فيمكن تحديد تاريخ إسناد الكتابة العامة إلى ابن زمرك سنة 1362/763 على أقصى تقدير .

(30) إن لقب رئيس الذي يختلف عن لقب قائد ينطبق على موظف القلم - راجع ليفي بروفنسال XX Inscriptions - Levi - Provençal
فبما يتعلق بهذين اللقبين المسندين إلى ابن زمرك راجع ابن الأحمر IV 690 سطر 2 .

(31) الإحاطة I 222 سطر 3 - ابن الأحمر IV 692 سطر 20 .

(32) أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي فقيه مالكي توفي 1388/790 النفح IV 755 .

جيدة للغاية إلى شعبان 770 مارس 1369 (33) ولم يكشف عن عدائه لولي نعمته الا بعد ذلك التاريخ .

لم يكن ابن زمرك في مأمن من طعن بعض أهل الفضل وانتقادهم سلوكه مع ابن الخطيب . فهل كان يستطيع أن يأتي غير ما أتى إذ كان رهين أمرين متناقضين فهو إما أن يغدر بمولاه محمد الخامس بوقوفه موقفا سلبيا ويساعد ابن الخطيب في مكايده وإما أن يستنكر غدر ابن الخطيب (34) فينتصب في وجه سيده القديم مدافعا عن مَلِكِه ، ومما لا ريب فيه أن الاختيار عسير ، وقد لا يؤخذ ابن زمرك إلا على أمر واحد هو أنه اهتدى أيما اهتداء إلى الحل الموافق لمصالحه الشخصية وأفرط في تسليط النقمة على وزير ماكر ، وبعد فرار ابن الخطيب من غرناطة إلى المغرب رفع محمد الخامس من شأن ابن زمرك فقلّده الوزارة الكبرى ، ونحن نعلم ما أبداه هذا الأخير من ضراوة وتعنّت للقضاء على زميله المخلوع وما حاكه من دسائس مع البعض من بني مرين لإحالة على مجلس من الفقهاء بفاس ومحاكمته وتكفيره وربما الإيعاز باغتياله في السّجن على يد شرذمة من الرّعاع الحانقين (35) .

غير أنه لا ينبغي أن لا نرى في ابن زمرك إلا متملّقا للملوك استولى عليه الجشع فغدا متلهّفا على مظاهر الفخر والشرف إذ من المفروض أن يعود سبب ما حدث من تغيير سياسي في الاتجاه الذي انتحاه ملك غرناطة ، مخالفا فيه ما جرى عليه ملوك بني نصر إلى ذلك العهد ، إلى تأثير ابن زمرك أو على كل حال إلى مساعدته وعونه . فقد عقد محمد الخامس الصلة من جديد بسنة وقع

(33) ذلك يبدو من خلال ثناء ابن الخطيب على ابن زمرك في الإحاطة II 221 إذ نعلم أن ابن الخطيب أنهى كتابه في شعبان 777/1369 - راجع ابن الخاتمة I 129 .

(34) كان ابن الخطيب يدبر مع السلطان المريني أبي سعيد خلع محمد الخامس النفع III 55 .

(35) راجع النفع III 58 - 60 .

التخلي عنها منذ ثلاثة قرون عند تفكك خلافة قرطبة الا وهي مدّ تأثيره السياسي على مملكة فاس مستغلاً في ذلك ضعف بني مرين الذي كان يتفاقم يوماً بعد يوم ، متّبعا سياسة التفرقة المعروفة مشيراً الطامعين في الملك بعضهم على بعض ، حتى أنه لم يتوان في وقت ما في التّدخل مباشرة لنصرة أحد مواليه بحدّ السيف ، وكان ابن زمرك يدبّر بنفسه تلك المؤامرات وفي عديد المناسبات عبر إلى العدو ليدر عن كذب شؤون سيّده .

ومن جهة أخرى فقد عُهد اليه تسع مرات بالتفاوض مع أمراء النّصارى (36) وسيفتخر ابن زمرك بعد وفاة حاميه ببضع سنين بأنه حافظ على ثقته إلى آخر عهده سنة 1391/793 . ومهما كان دهاء ابن زمرك السياسي ووفاءه للملكه ، فلم يكن ذلك وحده كفيلاً بدوام حظوته . فلا غرو أن تقدير محمد الخامس مواهب ابن زمرك في الكتابة والنظم كان له الأثر البعيد في تمادي تلك النعمة (37) *

لم يبق لنا من سجع ابن زمرك شيء بيننا بقيت لنا بعض القصائد التي نظمها بين سنتي 1362/763 - 1391/793 (هما تاريخ اعتلاء محمد الخامس العرش ثانية وتاريخ وفاته) . والتي كان معظمها موجهاً طبعاً إلى وليّ نعمته ، وقليل منها إلى شخصيات مرموقة في ذلك العهد .

كما أننا مازلنا نجهل تاريخ نظم الكثير منها ، أو لا نستطيع تحديده ، فمنها مقطوعات نظمت في المناسبات أو ارتجلت فجاءت ضعيفة جدّاً . ومن حسن الحظ أنّ ما كان منها ذا شأن من الناحية الأدبية ، يسهل ضبط تاريخه ببعض الدقة في غالب الأحيان . وفضلاً عن ذلك تجدر الإشارة إلى أننا نجد

(36) ابن الأحمر IV 692 سطر 13 وما يليه .

(37) ان ابن زمرك يقحم (في مقال يذكر فيه بفضل وأياديه في آخر عهده بالوظيفة) ، جميع القصائد التي أهداها الى محمد الخامس وذلك يعني أنها كانت موضع اجلال ابن الأحمر IV 692 .

بعض الأبيات المنتقاة من تلك القصائد ضمن نقائش الحمراء (38) وذلك من غريب الصدف الشاهدة على ما كان يوليه محمد الخامس من وافر العناية بشعر ابن زمرك .

إننا نستطيع بادئ ذي بدء أن نصنّف في مجموعة على حدة ست قصائد لم ينصّ على من أهديت إليه ، والغالب على الظن أنه محمد الخامس لأنها وردت مع أخرى مهداة إليه ولا نستطيع تحديد تواريخها (39) أما المناسبات التي أوحّت بنظمها فهي قليلة الاختلاف فيما بينها ، منها خروج الأمير إلى الصيد (قطعة 10) وإبلال الأمير من مرضه (14 و 15) ومعارضة لموشح ابن سهل (قطعة 12) وفي مجموعة ثانية يمكن جمع ست قصائد مهداة إلى محمد الخامس دون إشارة إلى تواريخها منها القصيدة التي نظمها لتهنئته بالنقاهة وهي

(38) في المذكرة الأنفة الذكر (أعلاه عدد 2) يؤكد ابن زمرك أنه قدّم نصّ جميع الرسوم المنقوشة على أجزاء الحمراء التي أمر محمد الخامس بتشييدها أو ترميمها ، وحيث أنه ليس لدينا إلا نبذ من شعره فمن المحال أن نتحقق من صحة هذا الزعم ومما لا ريب فيه أنه يوجد شبه كبير بين أسلوب ابن زمرك وبين نقائش الحمراء التي قام Lafuente لافوانت بإحصائها 145 - 204 - 205 - 105 - 107 - 179 - 113 - 181 - 182 - 185 - 138 - 135 - وكذلك الماقرو Almagro 204 - 52 - 151 - 61 - 152 - 153 - 154 - 108 - 105 (إن النقائش 23 - 122 - 139 - 189 لا توجد في مكان آخر) وجيروردى برنجي Girault De Prangey 3 - 4 - 7 - 8 - 9 - 13 14 وتجدر الإشارة الى تطابق المعنى والوزن والفاية بين Lafuente 99 و Giraut De Prangey 6 وابن الأحمر IV 731 سطر 6 وبين Lafuente 182 و Almagro 153 وابن الأحمر IV 730 سطر 8 من الأسفل وما يلي وبين Almagro 47 و Girault De Prangey 5 وابن الأحمر IV 730 سطر 20 وما يلي حيث يوضح هذا الأخير بدقة أنّ هذه الأبيات موجودة في رسوم الحمراء .

* انظر في العدد 23 من حوليات الجامعة التونسية سنة 1984 شعرا لابن زمرك لم ينشر من قبل .

- (39) قطعة 10 موشح ذكره ابن الأحمر IV 748 بحر البسيط 5 أبيات
 قطعة 10 مكرر موشح ذكره ابن الأحمر IV 743 بحر الرمل 7 أبيات
 قطعة 11 موشح ذكره ابن الأحمر IV 745 بحر السريع 7 أبيات
 قطعة 12 موشح ذكره ابن الأحمر IV 739 بحر البسيط 9 أبيات
 قطعة 13 موشح ذكره ابن الأحمر IV 740 بحر البسيط 9 أبيات
 قطعة 14 موشح ذكره ابن الأحمر IV 746 بحر البسيط 5 أبيات
 قطعة 15 موشح ذكره ابن الأحمر IV 744 بحر البسيط 5 أبيات

لا شكّ مزامنة لقصيدتي 14 و 15 (40) وكذلك المدائح التي نظمت بمناسبة عيد الفطر أو عاشوراء (41) والقصيدة التي يوجه فيها ابن زمرك الخطاب إلى مألقة قائلاً لها :

ما أسعدك باستقبال أميرك (42) والأخرى التي يشيد فيها بفضل سيّده (43) وأخيراً تلك التي يمزج فيها مدح غرناطة بمدح محمد الخامس (44) وفي مجموعة ثالثة ينبغي وضع القصائد أو المقطوعات التي قد يكون من اليسير تحديد توارixها على سبيل التقريب. وهي لا تفوق القصائد السابقة قيمة أدبية إلا أنها بفضل ما تضمنته من إشارات وتلميح قد تتيح مقارنات تاريخية مفيدة .

ففي إحدى القصائد المؤرخة سنة 1362/764 (45) والتي أوحاها إعدار أقامه محمد الخامس بمناسبة ختان ابنه يوسف نجد جملة من المعلومات حول المدد الذي قدّمه ملك غرناطة لأبي زيان (أبيات 38 وما يليها) الأمير المريني الذي كان يطالب بعرش فاس والذي تولى أمرها من 763 هـ إلى 768 . وفي قصيدة أخرى كتبت حوالي 1365/767 يذكر ابن زمرك سفارة أرسلت من تلمسان برئاسة القائد خالد (46) وفي ثالثة نظمت في نفس السنة لا يجد الشاعر بمناسبة المولد (47) إلا ما ابتذل من التهاني وتفّه .

(40) قطعة 16 موشح ذكره ابن الأحمر IV 747 بحر الرمل 5 أبيات .

(41) قطعة 17 قصيدة ذكرها ابن الأحمر IV 69 بحر البسيط 116 بيتا .

قطعة 18 مقطوعة ذكرها ابن الأحمر IV 697 بحر الكامل 11 بيتا .

(42) قطعة 19 موشح ذكره ابن الأحمر IV 744 بحر البسيط 5 أبيات .

(43) قطعة 20 قصيدة ذكرها ابن الأحمر IV 723 بحر الكامل 47 بيتا .

(44) قطعة 21 موشح ذكره ابن الأحمر IV 736 بحر البسيط 7 أبيات .

(45) قطعة 22 وردت في الإحاطة II 223 والنفح IV 680 البحر الطويل 84 بيتا يائية والتاريخ يذكره ابن الأحمر IV 702 سطر 8 .

(46) قطعة 23 قصيدة يذكرها ابن الأحمر IV 698 البحر الطويل 31 بيتا القافية سينية .

(47) قطعة 24 قصيدة يذكرها ابن الأحمر IV 699 البحر الكامل 76 بيتا همزية .

وكذلك الشأن في القصائد التي نظمها عند ميلاد ابن محمد الخامس الأصغر قبل الأخير (حوالي 1368/779) (48) وعند ختانه وختان أخيه (49) والاحتفال بالمولد النبوي 1369/771 (50) ونزهة صيد (51) وميلاد آخر الأبناء لملك بني نصر (بعد سنة 1368/770) (52) والفراغ من التحسينات التي أدخلها ملك غرناطة على الحمراء (53) أما المديح الذي نظمها عند إقامته بفاس (54) .

والقصيدة التي أهداها إلى محمد الخامس بمناسبة عيد الفطر سنة 1374/776 والأخرى التي هنأه فيها بنجاح ما أقدم عليه بالمغرب (56) والتي نظمها في نفس التاريخ فتحتوي إشارات دقيقة إلى ما كان ملوك غرناطة يحكونه

-
- (48) مقطوعة 25 قصيدة ذكرها ابن الأحمر 720IV الكامل 97 + 11 بيتا لامية .
 (49) قطعة 26 قصيدة ذكرها ابن الأحمر IV 702 الكامل 86 بيتا ميمية .
 (50) مقطوعة 27 قصيدة وردت في الإحاطة II 230 والنفع IV 684 البحر الطويل ميمية بيتان وتعدّ القصيدة 90 - راجع النفع IV 684 السطر 2 من أسفل - 12 بيتا رسمت في صحن الرياحين بالحمراء راجع الأنفة الذكر الذي يشير الى استرجاع مدينة الجزيرة سنة 1369/771 .
 (51) قطعة 28 قصيدة وردت في الإحاطة II 230 النفع IV 685 - 74 بيتا - الكامل رائية .
 (52) قطعة 29 قصيدة أوردتها ابن الأحمر IV 705 ، 146 بيتا البحر الطويل - بائية لا نستطيع تحديد تاريخها بدقة الا أنه ينبغي وضعه بعد 770 (في السنة التي أشرف ابن الخطيب على انعام كتاب الإحاطة راجع ص 503 اعلاه ملحوظة 5) إذ أن ذلك التأليف لا يذكر الا ثلاثة أبناء كانوا يعيشون انذاك (راجع الإحاطة II 19) بينما يشير ابن زمرك في قصيدته الى خمسة (راجع البيت 122) .
 (53) راجع الأبيات 95 - 98 الأبيات من 60 الى 70 و 87 - 88 - 92 - 93 ومن 102 الى 105 و 123 موجودة في نقائش قاعة الأختين - راجع Girault De Prangey, 94 Almagro, 127 Lafuente عدد 11 - 12 - أما الأبيات 75 - 76 - 143 - و 146 فهي توجد في رسم بركة صحن الأسود دون أي تغيير - والبيان 74 - 94 لم يرد منها الا أجزاء في نفس الرسم راجع Girault De Prangey عدد 10 .
 (54) قطعة 30 موشح أوردته ابن الأحمر IV 738 - 7 أبيات - البحر البسيط .
 (55) قطعة عدد 31 قصيدة وردت في النفع III 92 - 93 - 29 و 24 بيتا - البحر البسيط - هائية .
 (56) قطعة 32 قصيدة وردت في النفع III 95 - 102 بيتا - البحر الكامل - رائية .

من مكاييد للتدخل في الشؤون الإفريقية ، ومثل هذا يمكن أن يقال في المطوّلة التي خاطب بها سيّده عند استعادته سبّته سنة 1384/786 (57) .

كما أن الأبيات التي وجهها في نفس السنة (58) الى الأمير المريني موسى بن أبي عنان الذي كان يطالب بالحكم والمقطوعات التي كان ينوّه فيها (59) بتدخل محمد الخامس لتمكين الأمير أبي العباس أحمد من استرجاع ممتلكاته الإفريقية بحدّ السيف سنة 1386/789 وأخيرا المقطوعتين الموجهتين إليه ، أي إن كل ذلك الإنتاج الشعري يشهد بالمنزلة التي كان يحتلها المغرب في سياسة ملك غرناطة ووزيره . وقد قيل إنّ طبع ابن زمرك لم يلبث أثناء وزارته الطويلة أن تغير تغيرا عميقا (61) فقد أضحى الرجل على كبرياء يستفزّ النفوس . فلا شيء يحول دون تحقيقه غاياته كما أن ميله الى الكيد لا يدع أحدا ينعم بالأمن ولم ينج هو نفسه من مؤامرات أعدائه إلا بفضل رعاية محمد الخامس له وحده عليه ، وعند وفاة سيّده شعر بالخطر الذي يهدده فحاول في مرثية (62) نظمها فيه كما يبدو أن يسبق الأحداث (63) ويستميل خلفه يوسف الثاني (64) الذي تولّى الأمر بعده ، غير أن إحدى المكاييد التي دبرت

(57) قطعة 33 موشح أورده ابن الأحمر 709 - 70 مقطوعة (= بيتا Strophes) البحر الطويل .

(58) قطعة 34 موشح أورده ابن الأحمر IV 747 - 5 أبيات (Strophes) البحر البسيط .

(59) مقطوعة 35 قصيدة وردت في النّفح III 97 - 47 و 15 بيتا - البحر البسيط - رائية

قطعة 36 موشح أورده ابن الأحمر IV 742 - 7 أبيات - البحر لبسيط .

(60) مقطوعات أوردها ابن الأحمر IV 736 سطر 16 وما يلي .

(61) النّفح IV 689 ابن الأحمر IV 692 - سطور 16 - 20 ، 27 وما يلي .

(62) قطعة 37 مرثية رواها ابن الأحمر IV 733 - 39 بيتا - البحر الطويل - دالية .

(63) راجع قطعة 37 أبيات 28 - 30 .

المقطوعات الأربع التي أوردها ابن الأحمر IV 735 سطر 14 وما يليه قد تكون نظمت عند اعتلاء يوسف الثاني العرش وتولية الأمر .

(64) دام ملكه من صفر 793/جانفي الى رمضان 794/جويلية أوت 1392 - فيما يتعلق بالأحداث الموالية راجع ابن الأحمر IV 693 .

في البلاط آلت الى الإطاحة به والزج به في السجن بالمرية في أوائل صفر 793/جانفي 1391 (65) .

لبث بالسجن عشرين شهرا إلى غرة رمضان 794/22 جويلية 1392 وعندئذ أعاده يوسف الثاني الى سالف خطته فلم يطل بها عهده إذ عند وفاة الأمير يوسف خلال ذلك الشهر بادر خلفه محمد السابع بعزل ابن زمرك وتعيين ابن عاصم (66) وزيرا مكانه فتقلد الوزارة سنة كاملة ثم لم يلبث ابن زمرك أن استعادها ثانية (67) وقد يكون اتّعظ على ما يبدو بالأحداث حينما من الدهر إلّا أنّ ما بالطبع لا يتخلّف ، فانبهرى يزعج الناس بعنفه وبغيه حتى أن محمد السابع نفسه كان في ريب من أمره يخامره الظن في كيده له ، هذا بالإضافة إلى أن الوزير فقد ما كان له من كياسة ولباقة ودهاء في كنف الملك وبات يروح تحت عبء الأوصاب والآفات وتعود من جديد قصة الأسد الذي أدركته الشيخوخة وتنزل الفاجعة فجأة في النهاية ، ذلك أن ملك غرناطة ذات ليلة لسبب لا نستطيع معرفته ولكن بدون شك اغراء من الأعداء والحساد أمر باقتحام بيت ابن زمرك فقتل هو وأبنائه وخاصّته شر قتلة بينما كانت نساؤه وبناته (68) يشهدن الحادث مذعورات أما من بقي بحاضرة بني نصر من أنصار المرحوم ابن الخطيب فقد رأى في ذلك الاغتيال مظهرا من مظاهر العدل الإلهي (69) .

(65) نجد أصداء هذه النكبة في مقطوعتين رواهما ابن الأحمر IV 734 .

(66) هو أبو بكر محمد بن محمد عاصم ولد بغرناطة سنة 1359/760 وتوفي بها سنة 1426/829 ، راجع دائرة المعارف الإسلامية 385 II E I

(67) ابن الأحمر IV 734 سطر 8 .

(68) لا نعثّر في أي مكان على تاريخ ما حدث الا أنه ينبغي بالرجوع الى ما تقدم وضعه في الأشهر الأخيرة من سنة 1392/795 أو أوائل 1393/796 - راجع النفح IV 694 سطر 2 .

(69) النفح III 99 - IV 693 في الأسفل وما يليه .

إن طول القصائد والمقطوعات الباقية من نظم ابن زمرك ووفرة عددها كفيلا أن يتيحا لنا القيام بتحليل أدبي عميق ، وتيسيرا لذلك سندرس تباعا الهياكل (Cadre) والأغراض المطروقة والأسلوب .

إن ابن زمرك شاعر بلاط وبهذا الاعتبار لا غرو أنه ارتجل الكثير ونظم مقطوعات هي وليدة ساعتها (70) على منوال ما نجد من أشعار عند جميع شعراء البلاطات ابتداء من القرن الثالث للهجرة - IXم .

إن مثل ذلك الإنتاج سواء عند ابن زمرك أو عند غيره من الشعراء ليس فيه ما يثير الاهتمام لذلك لا نخصّه بأي بحث .

إن ابن زمرك يعود من جديد دون أن يقدم على أي تغيير إلى الهياكل (Cadres) الكلاسيكية الجديدة الموروثة عن القرون الخالية وسنجد فيها احتفظ لنا به الدهر من آثاره قصائد (71) يستهلها بمقدمة غزلية (نسيب) قد تطول في غالب الأحيان (72) ثم يتخلص منها إلى المديح مباشرة (قطعة 22) أو بصفة غير مباشرة عن طريق قسم غنائي قصير (قطعة 9) أو ذكر رحلات خيالية (قطعتان 26 و 27) وكثيرا ما ترد القصائد دون مقدمة غزلية وفي تلك الحال تجدر الإشارة إلى أنها عادة ما تكون في مدائح محمد أو بمناسبة الأعياد الدينية (قطعتان 6 و 31) أما الرثاء أي مدح الميت (مرثية) فلم يرد في شعره منه الا قطعتان (73) غير أنه يبدو أن ابن زمرك قد اتخذ ذلك الإطار الشعري على

(70) ابن الأحمر 725IV - 730 ، 731 ، 732 يروي من تلك المقطوعات ثلاثين تقريبا .

(71) في ما يخص الإطار الشعري في العهد الكلاسيكي الجديد انظر دراستي : شاعر عربي المتنبي 13 - 10 .

(72) 21 بيتا في القطعة 20 / و 24 بيتا في القطعة 22 / و 23 بيتا في القطعة 26 / و 25 بيتا في القطعة 27 / و 8 أبيات فقط في القطعة 9 / و 9 أبيات في القطعة 23 .

(73) القطعتان 8 و 37 .

نفس الصورة التقليدية الموروثة عن القدماء وفعلا فالمرثيتان اللتان بين أيدينا قد صيغتا على النمط الكلاسيكس الجديد بكامل الدقة .

ويحسن النظر على حدة إلى الأشعار العديدة التي نظمها ابن زمرك على نسق الموشح (74) فهيكلها لا يختلف من جميع النواحي عن هيكل القصيد الذي يستهل بالغزل كما أن بحورها ولغتها تقليدية إطلاقا والذي يجعلها جديرة بالاهتمام إنما هو نسق أبياتها وبنية كل بيت (Strophe) على حدة بما فيه من التعقيد ، وتحليل هارتمان Hartmann يغنيا عن الإطناب في ذكر ما يولده استعمال القوافي البسيطة والمتقاطعة والمضاعفة (75) من آثار فنية .

وكثيرا ما نجد هذا النسق

المطلع (76)

بَ _____ بَ _____
رَ _____ رَ _____

البيت 1

قَ _____ قَ _____
بَ _____ بَ _____
رَ _____ رَ _____

(74) في ما يتعلق بالإطار الشعري راجع دائرة المعارف الإسلامية I E I 849 (بن شنب) .

(75) Das Muwašṣaḥ 165 - 181 - 193 .

(76) ملحوظة للمترجم : المطلع يقال له أيضا غصن / . أما البيت فيقال له أيضا الجذع ويتركب من عنصرين من (1) دور أو سطر (2) وقفة .

البيت 2

نَا _____ ح. _____ نَا _____
 ح. _____ نَا _____ ح. _____
 ر. _____ ب. _____
 ر. _____ ب. _____

نلاحظ في هذا النسق (77) تطابق القافية في كل شطر - ومنها تستمد
 القافية الأساسية التي تتكرر في كل قفلة (78) ففي القطعة 10 يكشف لنا ابن
 زمرك عن مهارة فائقة اذ المطلع يتألف من بيتين لأشطرهما الأربعة نفس الروي
 الا أن حرفي الارتكاز الساكنين مختلفان - هكذا :

آب. _____ إيب. _____
 آب. _____ إيب. _____

وهذا التكلف العسير يبدو في كل قفلة .

* المطلع

هـرَا _____
 هـرَا _____
 هـرَا _____

وهناك هيكل آخر يتجلى في القطعة 33 حيث نجد :

(77) القطعة 21 .

(78) نجد نفس النسق في القطع 11 ، 12 ، 13 ، 14 ، 19 ، 30 ، 34 و 36 .

* ملاحظة المترجم : قد يكون هذا الموشح أقرع أي بدون مطلع ، وما يعتبره المؤلف مطلعاً إنما هو سمط أو دور والقفلة هي :

_____ هـرَا _____ دَا _____

البيت 1

_____ هَرَا _____ دَا

رَى _____

رَى _____

رَا _____

البيت 2

_____ رَى _____ دَا

بَا _____

بَا _____

بَا _____

نلاحظ أن القافية الوحيدة القارة هنا هي قافية عجز البيت الأول أي القفلة ، ولئن استغل ابن زمرك بصفة عامة حسب الظاهر مرونة الإيقاعات التي يتيحها الموشح فإنه لم يعدل ، خلافا للشعراء الكلاسيكيين الجدد الأقحاح ، عن استعمال البحور النادرة أحيانا فالقطعة 10 مكرر خاصة اكتسبت بسقوط الوتدين الأخيرين من كل شطر إيقاعا فريدا مبتكرا بدون ريب خاصة في البيت الثالث .

وَوُجُوهُ الشَّرْبِ تُغْنِي عَنْ شُمُوسٍ كُلَّمَا تَجَلَّى
بِلِحَاطٍ أَسْكُرَتْهَا عَنْ كُؤُوسٍ خَمَرُهَا أَحْلَى

(مجزوء الرمل)

الخ . . .

أما الأغراض الشعرية التي طرقها ابن زمرك فمصدرها « كلاسيكي جديد » أيضا . وقد توخى في معالجتها ، عدا القليل منها ، الطريقة التقليدية ومثال ذلك على وجه الخصوص ما نجده من نسيب في استهلال القصائد

والموشحات أو من أبيات تؤلف قطعاً غزلية قصيرة (79) وكما هو الشأن عند جميع الشعراء الكلاسيكيين الجدد لا يرد ذكر الحبيب إلا شذراً (80) في قوالب لاكتها الألسن مراراً وتكراراً ووصف صباية المحب المسكين في عبارة تقليدية على الإطلاق .

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِشَادِنِ مَهْمَا خَطَرُ فَالْقَلْبُ مِنْ سَهْمِ الْجُفُونِ عَلَى خَطَرُ
فَضَحَ الْغَزَالَةَ وَالْأَفَاحَةَ وَالْقَنَا مَهْمَا تَنَنَّى أَوْ تَبَسَّمَ أَوْ نَظَرُ
... لَمْ أَنْسَهُ لَيْلَ ارْتِقَابِ هِلَالِهِ وَالْقَلْبُ مِنْ شَكِّ الظُّهُورِ عَلَى غَرَرُ
(الكامل)

(قطعة عدد 20) (82)

وعلى غرار ما نجد عند شعراء القرن الثالث أي التاسع الميلادي كثيراً ما تمتاز أغراض الغزل بأغراض الحب والخمر (anacréontiques) أو بأغراض خميرية خالصة يرسل فيها القول مثل القطعة 10 على نسق موشح (83) .

لِلَّهِ مَا أَجْمَلَ رَوْضَ الشَّبَابِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْتَحَ زَهْرُ الْمَشِيبِ
فِي عَهْدِهِ أَدْرْتُ كَأْسَ الرُّضَابِ حَبَابُهَا الدُّرُّ بِشَعْرِ الْحَبِيبِ

مِنْ كُلِّ مَنْ يُحْجِلُ بَذَرَ التَّمَامِ إِذَا تَبَدَّى وَجْهُهُ لِلْعُيُونِ
وَيَقْضُحُ الْحُسْنَ بِلَيْنِ الْقَوَامِ وَأَيْنَ مِنْهُ لَيْنٌ قَدْ الْغُصُونِ

(79) قد يظن أن تلك المقطوعات القصيرة ليست إلا أبياتاً منتقاة من قصائد في المدح - راجع الإحاطة II 234 - 235 - النسخ IV 687 .

(80) راجع « شاعر عربي ... المتنبي » 48 .

(81) قدّها رشيق كالرمح وابتسامتها لطيفة كالأقحوان وعيناها كعيني الطّاءة رقة .

(82) ابن الأحرر IV 723 .

(83) ابن الأحرر IV 748 عرض شبيه لما ورد في القطعة 20 أبيات 9 - 15 .

وَلَحَظُهُ يَمْضِي مَضَاءَ الْحَسَامِ وَيُذْهِلُّ الْعَقْلَ بِسِحْرِ الْجُفُونِ
أَبْصَرْتُ مِنْهُ إِذْ يَحْطُ النَّقَابُ شَمْسًا وَلَكِنْ مَا لَهَا مِنْ مَغِيبِ
إِذَا تَجَلَّتْ بَعْدَ طُولِ ارْتِقَابِ صَرَفَتْ عَنْهَا اللَّحْظَ خَوْفَ الرَّقِيبِ
(السريع)

أما الأغراض المدحية فهي كغيرها خلو من الطرافة والابتكار . فابن زمرك لم يشد الا بذكر نبي الإسلام ، والأمراء وعليه القوم أمثال ابن الخطيب مكتفيا في ذلك بتكرار القوالب الجاهزة المتبدلة التي جرت العادة أن يمدح بها أمثال هؤلاء الأعيان (84) كالأبيات التالية التي نظمت تمجيدا للنبي محمد (قطعة - 31) (85) .

ثُمَّ الصَّلَاةُ صَلَاةُ اللَّهِ دَائِمَةٌ عَلَى الَّذِي بِاسْمِهِ فِي الذِّكْرِ سَمَاءُ
الْمُجْتَبَى وَزِنَادُ النُّورِ مَا قَدَحَتْ وَلَا ذَكَاءَ مِنْ نَسِيمِ الرُّوْضِ مَسْرَاهُ
وَالْمُصْطَفَى وَكِمَامُ الْكَوْنِ مَا فُتِقَتْ عَنْ زُهْرٍ زَهْرٍ يَرُوقُ الْعَيْنَ مَرَاهُ
يَا فَاتِحَ الرُّسُلِ أَوْ يَا خَتَمَهَا شَرَفًا وَاللَّهُ قَدَسَ فِي الْحَالَيْنِ مَعْنَاهُ
لَمْ أَذْخِرْ غَيْرَ حُبِّ فَيْكِ أَرْفَعُهُ وَسِيلَةً لِكَرِيمٍ يَوْمَ أَلْقَاهُ
(البسط)

وكذلك الأبيات التي يفيض فيها ابن زمرك في الثناء على محمد الخامس (قطعة 26) (86) .

مَلِكٌ أَفَاضَ عَلَى الْبَسِيطَةِ عَدْلَهُ فَالْشَّاءُ لَا تَخْشَى اعْتِدَاءَ الضَّيِّغِمْ
هُوَ مُنْتَهَى آمَالِ كُلِّ مُوَفِّي هُوَ مَوْرِدُ الصَّادِي وَكَثْرُ الْمُعْدِمِ

(84) شاعر عربي . . . المتنبي 13 - 49 .

(85) نفع الطيب III 93 سطر 4 الى أسفل .

(86) ابن الأحمر IV 703 .

لَا حَتَّ مَنَاقِبُهُ كَوَاكِبَ أَسْعَدٍ فَرَأَتْ مَلَامِحَ نُورِهِ عَيْنُ الْعَيْمِ
وَلَقَدْ تَرَأَى بِأَسُهُ وَسَمَاحُهُ فَأَتَى الْجَلَالَ مِنَ الْجَمَالِ يَتَوَامِ
مِثْلُ الْعَمَامِ وَقَدْ تَضَاحَكَ بَرُّهُ فَأَفَادَ بَيْنَ تَجْهِمٍ وَتَبَسُّمِ
أَنْسَى سَمَاحَةَ حَاتِمٍ ، وَكَذَلِكَ فِي يَوْمِ اللِّقَاءِ رَبِيعَةَ بَنٍ مُكْدَمِ
(الكامل)

ليس في ذلك المدح ولا في ما شاكله ما لا نستطيع إضفائه على أي أمير وقد ينطبق هذا القول أيضا على المدائح التي وجهها ابن زمرك الى سادته ومن غريب الصدف الجديرة بالذكر أننا لا نجد عند ابن زمرك وهو شاعر من شعراء البلاط الهجاء فيما تبقى من شعره (87) وما عدا ما تضمنته القطعتان 31 - 32 (88) من تعريض بابن الخطيب لا نصادف في شعره أي غرض أوحاه اليه الهجاء بل هما أقرب الى مقابلة بين كرم محمد الخامس وجحود وزيره السابق منها الى القذف الهجائي بالمعنى الصحيح .

ومن المتوقع نظرا الى النزعة الصوفية التي ظهرت لديه أن نجد في ما بقي من آثاره معاني ذات مسحة صوفية متميزة وفي الواقع لا يبدو أن ذلك الشاعر قد خبر الإلهام الديني على حقيقته فالفقرات القليلة التي يعظم فيها الإلهاء وبرز صلات الإنسان به هي تسابيح مبتذلة أو أدعية لا ميزة لها ولا عمق (89) وأخيرا فإن المعاني الوصفية التي يتبسّط فيها ابن زمرك ومعظم الشعراء من عرب الأندلس هي التي تجدر العناية بها على وجه الخصوص فالطبيعة والأزهار قبل كل شيء تنصّدر المنزلة الأولى وهي التي توحى إلى الشاعر بأبيات الدعابة حول

(87) من البديهي أن نعزو عدم وجوده إما الى أسباب نفسانية أو الى انلاف جميعه وذلك بعيد الاحتمال .

(88) القطعة 31 الأبيات 9 - 12 من المقطوعة 2 (راجع النفع III 92 الى أسفل)

قطعة 32 أبيات 27 - 32 راجع النفع III 95 .

(89) راجع قطعة 31 النفع III 93 سطر 14 - 29 .

نضارتها وسنائها الشبيهين بوجه الحبيب (90) رقة ولطافة ، ثم كذلك الليل .

وَالْبَدْرُ فِي صَفْحِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ
مِرْآةُ هِنْدٍ وَسَطَ لُجٍّ تَرْتَمِي (91)

كما أن غرناطة ستكون في شعره غرضاً وصفيًا سهل المنال فلا يخلو موشح من ذكرها عرضاً (92) إما لبث حزنه لفراقها (93) وإما ليتغنى بحاسنها (94) ويطنب في وصفها كما فعل في مستهل القطعة 17 (95) .

قَفْ بِالسَّيِّكَةِ وَأَنْظُرْ مَا بِسَاحَتِهَا
تَقَلَّدَتْ بِوِشَاحِ النَّهْرِ وَابْتَسَمَتْ
وَأَنْظُرْ إِلَى الدُّوْحِ وَالْأَنْهَارِ تَكْنُفُهَا
وَلِلْسَيِّكَةِ تَاجٌ فَوْقَ مَفْرِقِهَا
فَإِنَّ خُمْرَاءَهَا وَاللَّهُ يَكْلُؤُهَا
عَقِيلَةٌ وَالْكَثِيبُ الْفَرْدُ جَالِيهَا (2)
أَزْهَارُهَا وَهِيَ حَلِيٌّ فِي تَرَاقِيهَا (3)
مِثْلَ النَّدَامَى سَوَاقِيهَا سَوَاقِيهَا (7)
تَوَدُّ دُرَّ الدَّرَارِيِّ لَوْ تُحْلِيهَا (17)
يَاقُوتَةٌ فَوْقَ ذَاكَ التَّاجِ يُعْلِيهَا (18)
(البحر البسيط)

ويلى هذا البيت وصف قصر ملوك غرناطة الذي يتخذهُ ابن زمرك غرضاً آخر للإلهام لا ينضب فضلاً عن أنه قليل التنوع ((97) .

(90) ثلاث مقطوعات وردت في النسخ IV 698 تعدد وصف الأزهار في القصائد التي وصفت فيها غرناطة والحمراء - انظر الى ما يلي .

(91) قطعة 26 راجع ابن الأحمر IV 703 - بحر الرجز .

(92) راجع قطعة 10 البيت 1 - ابن الأحمر IV 748 - قطعة 11 جذع 4 ابن الأحمر IV 746 .

(93) راجع قطعة 9 بيتان 4 و 5 - النسخ IV 683 .

(94) راجع قطعة 21 الجذع 3 وما يليه - ابن الأحمر IV 737 .

(95) ابن الأحمر IV 694 لم تترجم الأبيات التي وردت في وصف غرناطة .

(96) موقع مقبرة ملوك غرناطة (هما اثنتان) توجد على ربوة جنوب الحمراء وخارج سورها .

(أ) رقم الأبيات في القصيدة (الأبيات : 2 - 3 - 7) .

(97) نجد هذا الغرض في القطعة 11 الجذع 3 (ابن الأحمر IV 745) القطعة 17 أبيات 17 - 25 (ابن

الأحمر IV 694) قطعة 29 أبيات 60 وما يلي (ابن الأحمر IV 706) قطعة 30 الجذعان 1 - 2 (ابن الأحمر IV 737) .

وإلى جانب هذه المعاني التي يبسط القول فيها نصادف في العديد من القصائد وصفا للكائنات الحية (98) وخاصة مشاهد تنبض حياة وأشعارا في الطرد (99) وسباق الخيل (100) والأعياد حيث يبدي البهلونيون والمشعوذون (أو الراقصون) مهارتهم (101) في رحاب بساتين الحمراء ناهيك أنه يصف لنا في إحدى قصائده الشماريخ (102) وهكذا يتضح لنا أن الغزل والمدح والوصف تمثل الأغراض الأوفر تداولا والأكثر استعمالا من بين الأغراض التي يشتمل عليها شعر ابن زمرك في حالته الراهنة . والغالب على الظن أن اتخاذه القوالب الجاهزة (clichés) التي تمت الى الكلاسيكية الجديدة يحول دون التجديد في الأساليب . أضف الى ذلك أن سرعة النظم التي يبدو أنها حفّت بوضعها هي التي اضطرتّه الى الركون الى أول ما صادف من قوالب جاهزة (كليشيات) ففي القصائد التي بين أيدينا نجد إمّا مجموعة من القوالب المستعارة من الشعر الجاهلي ومن الشعر الكلاسيكي المجدد وإمّا صيغا مقتبسة من الميدان الأدبي المشترك دون أن يكون طراً عليها أي تغيير محسوس وصفوة القول في الأولى ان ابن زمرك كان يتوهم أنه ابتكر حينما عبّر عن فكرة مبتذلة في صيغ تكاد لا تكون . دونها بلى وابتذالا (103) .

(98) وصف زرافة (قطعة 9 أبيات 29-37) وسنور عظيم (نفس القطعة أبيات 22-28) راجع النسخ IV 684 .

(99) قطعة 27 أبيات 40 - 70 النسخ IV 686 .

(100) قطعة 26 أبيات 7 وما يلي (ابن الأحمر IV 704) قطعة 33 جذوع 31 وما يلي (ابن الأحمر IV 716) .

(101) قطعة 26 أبيات 74 - 81 قطعة 33 جذوع 49 - 60 .

(102) قطعة 33 جذوع 35 - 48 .

(103) راجع على سبيل المثال القوالب الجاهزة التي قدم معناها في استهلال القطعة 26 (ابن الأحمر IV 702) .

(أ) رقم الأبيات في القصيدة (17 - 18) .

أما الأخرى فتتسم بفاقة معنوية خاصة وإليك بعض الأمثلة :

أَتُونِي بِتُورٍ يَرُوقُ نَضَارَةً كَحَدِّ الَّذِي أَهْوَى وَطِيبَ تَنْفُسِهِ
وَجَاؤُوا بِهِ مِنْ شَاهِقٍ مُتَمَنِّعٍ تَمَنَّعَ ذَاكَ الظُّبْيِ فِي ظِلِّ مَكْنِسِهِ (104)

ولتقارن بهذه :

رَعَى اللَّهُ زَهْرًا يَتَمَيِّ لِقَرْنِفَلٍ حَكَى عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقَ حَدِّهِ
وَمَنْبُتُهُ فِي شَاهِقٍ مُتَمَنِّعٍ كَمَا امْتَنَعَ الْمُحْبُوبُ فِي يَتِهِ صَدِّهِ (105)

ويمكن مقارنة هذا المقطع بما يليه :

وَمَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي كَزَهْرِ قَرْنِفَلٍ حَكَى حَدَّ مَنْ يَسْبِي الْفُؤَادَ وَعَرَفَهُ
تَمَنَّعَ فِي أَعْلَى الْهَضَابِ لِمُجْتَنٍ تَمَنَّعَهُ مِنِّي إِذَا رُمْتُ إِلْفَهُ
(الطويل)

كما أن فقر التعبير يتجلى أيضا في القطع الشعرية التي عني ابن زمرك بصناعتها مثل :

عَرُوسَةٌ تَاجُهَا السَّيْكََةُ
كُرْسِيُّهَا جَنَّةُ الْعَرِيفِ (أ)

التي تذكرنا بأبيات القطعة 17 الأتفة الذكر (106) وبمقطع من أبيات القطعة 21 (107) .

عَقِيلَةٌ تَاجُهَا السَّيْكََةُ تُطِلُّ بِالرَّقَبِ الْمُنِيفِ

(104) النفع IV 698 - البحر الطويل .

(105) قطعة 30 الجذع 2 - ابن الأحمر IV 736 - البحر الطويل .

(106) انظر أعلاه .

(107) ابن الأحمر IV 737 جذع 4 - خَلَعُ البسيط .

كَأَنَّمَا فَوْقَهُ مَلِيكَةٌ كُرْسِيُّهَا جَنَّةُ الْعَرِيفِ

وختاما ينبغي ذكر أبيات القطعة 11 (108) أَيْضًا :

المطلع

قَدْ نُظِمَ الشَّمْلُ أَتَمَّ انْتِظَامٍ وَاعْتَنَمَ الْأَحْبَابُ قُرْبَ الْحَبِيبِ
وَأَسْتَضْحَكَ الرُّوضُ ثُغُورَ الْغَمَامِ عَنْ مَبَسَمِ الزَّهْرِ الْبُرُودِ الشَّيْبِ
وَعَمَّ النُّورُ رُؤُوسَ الرُّبَا وَجَلَّلَ النُّورُ صُدُورَ الْبِطَاحِ
(السريع)

وَلَا يَزَالُ
يَتَلَوُّ عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ عَامٍ (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)
(السريع)

ونجد هذه الأبيات في القطعة 34 مع بعض الاختلاف (110) في الرواية ويقدر يكون من السير الهين تعداد الأمثلة وهي كفيلة بإقامة الدليل على ما كان يبذله ابن زمرك في غالب الأحيان من طفيف العناية للظفر بقوالبه الجاهزة (clichés) إلا أن تلك الهنات الناتجة عن التقصير، كما تجدر الإشارة إليه، تبرز خاصة في الموشحات وقد يكون ذلك راجعا إلى أن تلك الأشعار لا تتطلب من السبك الأدبي ما تتطلبه القصيدة. ومن الجلي على وجه الخصوص أن ابن زمرك حرص حرصا كبيرا خاصة في قصائده على إظهار براعته البيانية.

(108) ابن الأحمر IV 744 .

(أ) المقرئ - نفح الطيب - (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى مصر 1949) الجزء X ص 103 - البحر مغلغ البسيط .

(109) القرآن سورة 61 آية 13 .

(110) راجع ابن الأحمر IV 747 . راجع أيضا القطعة 10 الجذع 4 . ابن الأحمر IV 748 .

ومما لا ريب فيه أن موشحاته لم تكن خالية من الصنعة في الأسلوب ، الا أن نسق الأبيات في الجذع الواحد وتنظيم القوافي وما اتسم به الأسلوب من سهولة نسبية هي الوسائل التي اعتمدها الشاعر لبلوغ التأثير (111) الذي كان يرومه أمّا القصائد فهي على نقيض ذلك لا يفرض فيها ابن زمرك لحذقه أي حدّ ، وقد لا يمكن في هذا الصدد بيان المواطن التي ينفصل فيها أو يتميز بها عن سائر شعراء العربية ، وكثيرا ما كان اختيار القوالب الجاهزة المعادة هو الذي يمي عليه صوره وتشابيهه وهو من هذه الناحية لا يبتكر ثم هل كان مطالبا بالابتكار ؟ ذلك ما نرتاب فيه - فما تعلقته همة الأدباء في غرناطة ولا في غيرها وربما في غرناطة دون سواها بطرافة المعنى ، ومن المحتمل أن تكون المحسنات اللفظية والنكات والتوريات هي الكفيلة باثارة الاستحسان وقد يكون ابن زمرك من المهرة في هذا الباب . وبيت هكذا :

بِهِ الْبُهُؤُ قَدْ حَاَزَ الْبَهَاءَ وَقَدْ غَدَا بِهِ الْقَصْرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَا (112)

يتلاعب فيه الشاعر بالمعاني التي تفيدها الألفاظ المشتقة من أصل واحد وهو نموذج توجد منه العشرات فيما تبقى من نظم ابن زمرك ، الى جانب هذه الخزعبلات التي تكشف عن فحل من فحول البلاغة والبيان تحسن الإشارة الى ما تضمنه شعره وشعر العديد من مواطنيه من تصنع في التعبير حيث تقترن بعض السمات المقتبسة من الإنسان بل من أجزاء جسمه بأشياء جامدة خالية من الروح ، وعلى غرار عبارة « أجنحة النسيم » يستعمل وزير محمد الخامس صورا من هذا القبيل : بسمّة الأزهار - ضحك السحاب - روض الشباب - وجوه المجد - راية الفجر فهذه العبارات تستقرّ وتكاد تنقلب قوالب جامدة لا

(111) يبدو أن القطعة 16 قد تعمّد نظمها بأسلوب بسيط .

(112) القطعة 29 - راجع ابن الأحمر IV 706 - البحر الطويل .

تتغير في بيته كما أن استعمال هذه القوالب الجاهزة المألوفة والصيغ المطروقة يفتح لإنتاجه مجال التفنن والتنوع ولم يكن ذلك ما يتطلبه أهل زمانه ولا أي كان ممن ينتسب الى البيئات العربية في القرون الوسطى .

وعلى كل فقد ظفر شعره بإعجاب الكثيرين المفرطين فيه منهم ابن الخطيب الذي أثنى عليه ثناء قد يكون صادقا فيه (113) كما أن ابن الأحرر يشيد بفضائله بعبارة جمعت بين التكلف والتفخيم وقد حمله الشغف الى العناية بجمع شتات أشعاره ليؤلف منها ديوانا ضخما وقع بين يدي المقرئ فروى منه الكثير في كتابه عن الأندلس ، وقد تكون لهذه الشهادات أهميتها الا أنها بغير شك لا تكفي لحملنا على النظر الى ذلك التأليف نظرة إعجاب لا حد له فهي تساعدنا على تحسّس متطلبات الجمهور المتأدب بغرناطة من أواسط القرن الرابع عشر الى أوائل السادس عشر وتمكننا من إدراك الفاقة التي آل إليها شعر البلاط بالأندلس اذ فقد بها أكثر من سواها كل صلة بالإلهام الشعري الحي وبات صناعة بلاغية جوفاء لا طائل وراءها .